قضية اللفظ والمعنى عند الجاحظ: قراءة في رؤى النقّاد المُحْدَثينَ

THE Case of Utterance and Meaning for Al-Jahiz - Study in the views of modern critics –

د.رزايقية محمود

معهد الآداب واللغات، المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي- تيسمسيلت-الجزائر

abousoltane141@gmail.com

تاريخ الإرسال : 2018/11/21	تاريخ القبول: 2019/02/13	تاريخ النشر : 2019/05/15

مُلَخَّصُ البَحْث

تُعدُّ قضيةُ اللّفظ والمعنى من القضايا النقدية والفكرية التي شغلتْ النقّادَ والمفكّرينَ قديما وحديثا. والواضحُ أنّ الآراء النقدية التي تناولت هذه القضية بالدّرس والتحليل كانت قاصرة عن تمثيل طبيعة العلاقة الجدلية بين اللّفظ والمعنى؛ إذ أسرف بعضُ النقّاد والبلاغيينَ في إعلاء شأن اللّفظ وجعْل المزيّة له وحده، كما اهتمّ البعضُ الآخرُ بالمعنى على حساب اللفظ.

ولعلّ الجاحظ(150هـ -255هـ)[1] هو خيرُ من تحدّث عن قضية اللّفظ والمعنى في النصف الأوّل من القرن الثالث الهجري، غير أنّ الناظر في كتابه القيّم(البيان والتبيين) فضلا عن كتاب(الحيوان) يضع يده على نصوص اختلف النقاد في فهمها وتأويلها، مما أدّى إلى بروز آراء ومواقف متباينة حمّلت الجاحظ وزر مسألة إعطاء أهمية وأفضلية للفظ على حساب المعنى .

إنّ دراستنا هذه تتغيّا الكشفَ عن آراء الجاحظ ومواقفه من قضية اللفظ والمعنى في ظلّ الجهود النقدية المتباينة في أيهما أفضل: الألفاظ أم المعاني.

الكلمات المفتاحية: لفظ؛ معنى؛ بلاغة؛ تفكير؛ جاحظ .

Abstract:

The issue of the word and meaning is one of the critical and intellectual issues that preoccupied critics and thinkers of old and recent times. It is clear that the critical views that dealt with this issue by study and analysis were insufficient to represent the nature of the dialectic relationship between the word and the meaning. Some critics and philosophers have exaggerated the meaning of the word and made it an advantage..

Perhaps Al-Jahiz (163 AH-255 AH) is better than speaking about the issue of pronunciation and meaning in the first half of the third century AH, However, the viewer in his book Value (statement and clarification) as well as the book (animal) puts his hand on the texts of the critics differed in their understanding and interpretation, which led to the emergence of different

views and positions carried Aljahiz and the issue of giving importance and preference to the word at the expense of meaning.

The aim of this study is to seek the views of Utterance and Meaning for Al-Jahiz and his positions on the issue of pronunciation and meaning in light of the different monetary efforts in whichever is better: words or meanings.
key words:Utterance; Meaning; Rhetoric; Thinking; Al-Jahiz .

تقديم:

تُعد قضيةُ اللّفظ والمعنى من أهمّ وأعقد القضايا التي شغلت النقّاد والأدباءَ والبلاغيينَ والمتكلّمينَ والفلاسفة على اختلاف بيئاتهم وثقافاتهم. ولعلّها تمثّلُ أبرزَ قضية خلافية عرفها النقدُ القديمُ، فهي" إحدى مُشكلات النقد الكبرى، وجانبٌ مُهمٌّ من نظريتهم في النصّ الأدبيّ"[2].

وقد اعتبرها كثيرٌ من العلماء والمفكّرينَ أنّها من أكبر القضايا التي عرفها النقدُ العربيُ، ويَنظرُ إليها بعضُهُم كإشكالية عقَدية وفكرية، وأنّ أوّل ظهور لها بدأ مع المتكلّمين عند تناولهم لمسألة (خَلْق القُرآن) وحقيقة " كلام الله : هل هو معانٍ فقط أم إنّه معان وألفاظ وحروف"[3].

وبهذا تكون مسألة الجدَل بين اللّفظ والمعنى قد نشأت في البيئة الدينية، وأنّ العصبية والشعوبية كانتا من العوامل التي خلقت هذه القضية قبل أن يعرفها الميدانُ الأدبيّ.

وما يهمّنا في هذه الدراسة هو أنّ الكثير من النقّاد والباحثين أرجعوا سبب عناية النقّاد والبلاغيين بهذه القضية إلى أمرين:

الأولُ: ارتباط ثنائية اللّفظ والمعنى بالإعجاز في القرآن وبالنظم، حيث احتضنت النّظمَ – في أصوله الأولى– كُتبُ ومباحثُ الإعجاز القرآني. لأنّ الغاية الأسمى من دراسة علم البلاغة، فضلا عن النظم، هي فَهْمُ إعجاز القرآن الكريم. يقول ابنُ خلدون : " واعلمْ أنّ ثمرةَ هذا الفنّ إنّما هي في فهْم الإعجاز في القرآن؛ لأنّ إعجازه في وفاء الدّلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام، ومع الكمال فيما يختصّ بالألفاظ في انتقائها وَجَوْدة رصْفها وتركيبها، وهذا هو الإعجازُ الذي تقصُرُ الأفهامُ عن إدراكه..."[4].

غير أنّ نظرية النّظم " قضت على ثنائية اللّفظ والمعنى التي كانت سائدة لدى النقّاد العرب الذين سبقوه "[5]. وانعقد رأيُ معظم الذين تطرّقوا إلى الإعجاز بالبحث على أنّ سحرَ بلاغته، ونظمه الراقي، هما سبب الإعجاز فيه، وبهذا تولّدت فكرةُ النّظم وتطوّرت؛ إذ " قالوا بإعجاز

القرآن في نظمه على خلاف من زعمَ من القَدَرية أنْ لا إعجاز في نظْم القرآن كما ذهب إليه النظّام "[6].

وقد أولى الجاحظُ اهتمامه بالإعجاز القرآني وبالنظم على السواء، حيث ألّف كتابا أسماه(نظم القرآن)[7] ، فأشار إلى النظم بأنه سرّ الإعجاز " في كتابنا المنزّل الذي يدلّنا على أنّ صدقَ نظْمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد..."[8].

الثاني: ارتباط (اللفظ والمعنى) بالمعنى البلاغي. فإذا كانت البلاغةُ في مفهومها العميق هي: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، فإنّ هذا المعنى اختلف في مرجعه. هل هو صفة ترجع إلى اللّفظ وحده دون المعنى أم أنّه صفة ترجع إلى المعنى بغضّ النظر عن اللفظ والصياغة؟

هكذا أصبح اللفظُ والمعنى يُمثّلان " زوجاً إشكالياً في التراث على نحو عامّ "[9]، حيث مثّلت العلاقةُ بين اللفظ والمعنى مشكلةً رئيسيةً " هيمنَتْ على تفكير اللّغويين والنحاة، وشغلت الفقهاء والمتكلّمين، واستأثرت باهتمام البلاغيين والمشتغلين بالنقد، نقد الشعر ونقد النثر، دعْ عنك المفسّرين والشُرّاح الذين تُشكّلُ العلاقةُ بين اللّفظ والمعنى موضوعَ اهتمامهم العلني والصريح "[10]، ممّا جعل هذه القضية تحتلّ موقعاً مركزياً في الفكر العربي.

فكيف نتعامل مع النصوص التي عرضتها كتبُ الجاحظ، والتي تكشفُ عن آرائه ومواقفه من قضية اللفظ والمعنى في ظلّ الجهود النقدية المتباينة في أيّهما أفضل: الألفاظ أم المعاني، وانقسموا إلى ثلاثة اتّجاهات:

أ- اتّجاه اهتمّ بالألفاظ وفضّلها على المعاني.

ب-اتّجاه اهتمّ بالمعاني وفضّلها على الألفاظ.

ت-اتّجاه اهتمّ بالألفاظ والمعاني في آن واحد، واعتبرهما بمثابة الروح والجسد.

أولاً: موقف الجاحظ(ت255هـ) من قضية اللفظ والمعنى:

يكادُ يُجمع الدارسون لتاريخ البلاغة والنقد في التّراث العربيّ أنّ الجاحظَ هو أشهرُ عَلَم عربيّ من البلاغيينَ والنقّاد ارتبط اسمُهُ بهذه المسألة، ويميلُ معظمُ النقّاد العَرب إلى تحميل الجاحظ مسألة إعطاء اللّفظ أفضلية على المعنى، وذلك منذ أن ردّ الجاحظُ على أبي عمرو الشيباني في استحسانه للمعاني، والتي عبّر عنها في نصه الشهير بقوله:" وأنا رأيتُ أبا عمرو الشيباني وقد بلغَ من اسْتجادته لهذين البيتين، ونحن في المسجد يوم الجمعة، أنْ كلّفَ رجلاً

حتى أحضره دواةً وقرطاساً حتّى كتبهما له. وأنا أزعمُ أنّ صاحبَ هذين البيتين لا يقولُ شعراً أبداً، ولولا أنْ أُدخلَ في الحكم بعضُ الفتك؛ لزعمتُ أنّ ابنَهُ لا يقولُ شعراً أبداً، وهما قوله:

لا تحسبنّ الموتَ موتَ البلى فإنما الموتُ سؤالُ الرّجال

كلاهما موتٌ ولكــنّ ذا أَفظعُ من ذالك لذلّ السؤال

وذهب الشيخُ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفُها العجَميُ والعربيُ، والبَدويُ والقَرويُ، والمدنيُ. وإنما الشّأنُ في إقامة الوَزن، وتَخيّر اللّفظ، وسُهُولة المخْرج، وكَثْرة الماء، وفي صحّة الطّبع، وجَوْدة السّبك، فإنّما الشّعرُ صناعة، وضَربٌ من النّسْج، وجنسٌ من التصوير"[11].

وردت نصوصٌ كثيرةٌ في قضايا اللفظ والمعنى، وأغلبُ هذه النصوص أثارت خلافاً كبيراً بين النقاد في تفسيرها. ولعلّ هذا النصّ- ونصوصٌ أخرى- كان السبب الرئيس في أن يتحمّل الجاحظُ وزْرَ وجريرة أفضلية اللّفظ، وأنه من المنتصرين له على حساب المعنى، وهذا ما توهّمه كثيرٌ من النقّاد والدارسين.

لا يمكن تجاهل النصوص التي أوردها الجاحظُ والتي تكشف مدى اهتمامه باللّفظ، من هذه النصوص قوله: " ثم اعْلمْ-حفظك الله- أنّ حُكْمَ المعاني خلافُ حُكم الألفاظ؛ لأنّ المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدّة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومُحصّلةٌ محدودة "[12]. ومن ذلك أيضا موقفه من ترجمة الشعر، فهو يرى أنّه لا يمكن ترجمته؛ لأنه" متى حُوّل تقطّع نظمُهُ، وبَطُلَ وزنُهُ، وذهبَ حسنُهُ، وسقطَ موضع التعجّب"[13].

وقد أعطى الجاحظُ للّفظ صفات تُحبّبه إلى النفس، " ومتى كان اللّفظُ أيضاً كريماً في نفسه، متخيّرا من جنسه، وكان سليماً من الفضول، بريئاً من التعقيد، حُبّبَ إلى النفس، واتّصل بالأذهان، والتَحَمَ بالعُقول، وهشّت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوبُ، وخفّ على ألسُن الرواة، وشاع في الآفاق ذكْرُهُ... "[14].

وتظهر عناية الجاحظ باللّفظ من خلال الردّ على العتّابي في تعريفه البلاغة. فالعتابيُ يرى أنّ كلّ من أفْهَمَكَ حاجتَهُ فهو بليغٌ؛ ولأنّ هذا التعريف للبلاغة يُسقط قيمَة اللّفظ، ولا يُقيمُ للفصاحة وزْناً، فقد ردّ عليه الجاحظُ بقوله: " والعتّابيُ حين زعمَ أنّ كلّ من أفهَمَكَ حاجتَهُ فهو بليغٌ، لم يعْنِ أنّ كلّ من أفهمنا من معاشر المولّدين والبلديينَ قصْدَهُ ومعناه،

بالكلام الملحون والمعدول عن جهته، والمصروف عن حقّه، أنّه محكومٌ له بالبلاغة كيف كان، بعد أن قد فهمنا معنى كلام النبطيّ الذي قيل له: لمَ اشتريتَ هذه الأتان؟ قال: أركبها وتلدُ لي، وقد علمنا أنّ معناه كان صحيحاً"[15].

حقيقة هذه النصوص وغيرُها دليلٌ قاطعٌ أنّ الجاحظ اهتمّ باللفظ, وأنزله منزلةً رفيعةً، ولكنّ هذه النصوص نفسها لا تُشير أنّ الجاحظ أهْدَرَ قيمةَ المعنى وأسْقطهُ من عَلياء البلاغة وكمال الشّعر وسلامة الذوق .

ولإنصاف الرّجل نحاولُ تلَمُّسَ موقفه الصحيح من المعنى، ففي أقواله ما يُوحي بأنّه كان يلتفتُ إلى المعنى ويرعى قيمته في الكلام وفي الشّعر. يقول: " ولا يعلمُ في الأرض شاعرٌ تقدّم في تشبيه مُصيب تامّ، وفي معنى غريب، أو في معنى شريف كريم، أو في بديع مخترع، إلّا وكلّ من جاء من الشعراء من بعده أو معه، إنْ هو لم يعدّ على لفظه فيسرق بعضه أو يدّعيه بأسره، فإنّه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكاً فيه..."[16].

هي أنواعٌ وأصنافٌ ومراتب من المعاني(الغريب العجيب، والشريف الكريم، والبديع والمخترع) يتنازعها الشعراءُ فيما بينهم، فإذا ما سبق أحدُهُم إلى معنى غريب عجيب؛ فإنّ الأنظارَ تتّجه إليه مُحاولةً سرقَتَهُ أو اقتباسه.

وليست كلّ المعاني قابلة للسرقة والاقتباس، إذ منها المبدَعُ الذي يُعرفُ به صاحبُهُ الذي أبدعه كوصف عنترة بن شدّاد للذباب، يقول الجاحظُ في هذا الوصف: " وَصَفَهُ فأجاد صفته، فتحامى معناه جميع الشعراء، فلم يعرض له أحدٌ منهم، ولقد عرض له بعضُ المحْدَثِينَ ممّن كان يُحسنُ القول، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى، ومن اضطرابه فيه، أنّه صار دليلاً على سُوء طبعه في الشعر.

قال عنترة:

جادت عليها كلُّ عين ثرّة فتركْنَ كلّ قرارة كالدّرهم
فترى الذباب بها يُغنّي وحده هزجاً كفِعْل الشّارب المترنّم
غَرِداً يحُكّ ذراعَهُ بذراعِهِ فِعْل المُكبّ على الزّناد الأجذم[17]

وَصْفُ الذّباب بهذه الطريقة الراقية دليلٌ واضحٌ أنّ السرّ في المعنى لا في اللفظ. ولكن هذا لا يعني ولاءَ الجاحظ للمعنى، وأنّه متساهلٌ مع الشّعراء مادام المعنى جديداً رائقاً وواضحاً.

والصّوابُ أنّ الجاحظ يُعطي ولاءَهُ للعمل الأدبيّ الجيّد الذي يأخذ بتكامل الشكل والمضمون.

وتوجدُ نصوصٌ أخرى تُفسّر حيادية الجاحظ في توظيف اللفظ والمعنى، يقول: " وليس في الأرض لفظٌ يُسقط البتّة، ولا معنى يبورُ حتّى لا يصلح لمكان من الأماكن"[18]. وهذا النصُّ يوضّح حيادية الجاحظ إزاء اللفظ والمعنى، وأنّ اللّفظ الجيّد يُشاكل المعنى الجيّد، والألفاظ السخيفة تصاحب السخيف من المعاني، قال:" إلّا أنّي أزعمُ أنّ سخيفَ الألفاظ يُشاكلُ سخيفَ المعاني، وقد يُحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني"[19].

ثانياً: موقف النقاد المحدثين من آراء الجاحظ في اللفظ والمعنى:

آراءُ الجاحظ المتباينة أَوْقعَتْ الباحثينَ والنقّاد العرب في حيرة واضطراب؛ فهو من جهة يُشيدُ بالمعنى ويُعْلِي شأْنَهُ، ومن جهة ثانية يُشيدُ باللّفظ ويُفضّله.

يرى الدكتور بدوي طبانة(1914-2000م) أنّ سبب تفضيل الجاحظ اللّفظ على المعنى هو تعلّقُهُ بمذهب الصّنعة، وهذا التعلّق هو الذي أعماهُ عن تقدير المعنى[20]، ويرى الدّكتور محمّد زغلول سلام(ت2013م) أنّ فكرةَ الجاحظ عن اللّفظ والمعنى مفادُها أنّ الإعجازَ القرآني متعلّقٌ بالألفاظ دون المعاني، منطلقاً من فهمه لرأي الجاحظ في نظرية النظم بقوله : " يرى الجاحظُ أنّ الإعجازَ مُتّصلٌ بالنّظم وحده بصرف النظر عّما يحويه القرآنُ من المعاني، إذ طلب اللهُ تعالى إليهم أنْ يأتوا بعشْر سُوَر من مثله في النّظم والرّوعة في التأليف حتى ولو حوى التأليفُ الرائعُ كلّ باطل ومفترى ولا معنى له. فما بال القرآن وقد جمع إلى النظم الرائع المعاني الفائقة"[21] .

وللدكتورة ابتسام الصفّار رأيٌ آخر تردّ فيه على النقّاد الذين تَوهّمُوا في فهم رأي الجاحظ بتركيزهم على جمل (المعاني مطروحة) ليستنتجوا أنّ الجاحظَ من أنصار الألفاظ على المعاني، وأنّه بذلك شَكّل مدرسةً نقديةً كان من آثارها أبو هلال العسكري، وإن كان صاحب نظرية في الشّكل علماً أنّه لم يكن مطلقاً من الشكليين في التطبيق[22].

وهناك علماءُ ونقّادٌ تأمّلوا كلامَ الجاحظ وفي حيثياته فوجدوه يُفسّر بعضه بعضا؛ حيث إنّ آراءه كانت تشكّلُ نظرية كلية للصياغة والأسلوب، وليست مفردة تخصّ اللّفظ فقط، ولم يكن الجاحظُ من أنصار اللّفظ على حساب المعنى، ولا من الذين عنوا بالصناعة والأسلوب والصياغة

فقط بل أنّه نظر إلى العمل الأدبيّ نظرةً متكاملةً شاملةً تتضمن اللّفظ والمعنى والفكرة والصياغة والأسلوب؛ لأنّ الجاحظ عندما قال: " الشعرُ صناعةٌ، وضربٌ من النسج..." لم يكن يعني مُطلَقَ الكلام، وإنما خصّ الشعر بهذا الوصف، وبالتالي التفاضل بين اللّفظ والمعنى، وأيهما أكثر قيمة في تحديد قوة الكلام وتفرّده، كان منحصرا في الكلام الأدبي، ولا سيما النصّ القرآني الكريم والشعر[23].

وللدكتور حمّادي صمود(1947م -) رأيٌ جريء يؤكّد فيه على موقف الجاحظ من مسألة(اللفظ والمعنى)، ويحاول أن يجد له بعض المسوّغات والمبررات الموضوعية والتاريخية في تقديمه اللفظ على المعنى؛ منها: أنّ موقفه من اللّفظ جاء منسجماً مع أصول نظرية الجاحظ البلاغية المستندة إلى الجنس الخطابي، ومنسجماً مع رأيه في الإعجاز القرآني، الذي فسّره بالنظم، وكان مخالفاً لأستاذه إبراهيم النظّام الذي يقول بالصرفة، ثمّ إنّ القول بـ(المعاني المطروحة) متفقٌ مع اشتراطه الفصاحة في البلاغة، وهو موقفٌ لا يستغرب ممن يفهم البلاغة على هذا النمط بحسب قوله [24].

وما تأكيدُ الجاحظ على أنّ المعاني يعرفها العربيُ والعجميُ، والقرويُ والبدويُ، إلّا إشارة ضمنية إلى أنّ الارتباطَ بالمعنى يقتضي الإقرار بتساوي حظوظ الأجناس المتعايشة في دار الإسلام، على اختلاف طبقاتها الاجتماعية في البلاغة، وتتفاوتُ تلك الحظوظ بتأكيد جانب الشكل والصياغة [25].

ويرى الدكتور محمد غنيمي هلال(1916 – 1968م) أنّ تصريح الجاحظ بشأن الكلام شأن التصوير والصياغة، " ممّا يدلّ على أنه لم يرد الألفاظ مفردة عن تراكيبها، ولا التراكيب المتكلّفة أو الخالية من المعاني. نعم قد اشترط في التراكيب خلوّها من التنافر، وهو وجهٌ حسن لفظيٌ محض. ولهذا عاب الشطر الثاني في قول ابن يسير:

لم يضرها والحمد لله شيءٌ وانثنتْ نحو عزف نفس ذهول

فقال:(متفقّدُ النصف الأخير من هذا البيت، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرّأ من بعض)..."[26]

والجاحظ يُشيد بقيمة المعنى في غير موضع، ممّا يدلّ أنه لم يعنَ باللفظ إلّا لجلاء الصورة الأدبية، ولهذه أوثق رباط بالمعنى[27].

كما أنّ الجاحظ يرى أنّ الألفاظ لا توصف بالقبح أو الحسّة على وجه الإطلاق، إذ لابدّ مشاكلتها للمعنى، يقول: " ولكلّ ضرب من الحديث ضربٌ من اللفظ، ولكلّ نوع من المعاني نوعٌ من الأسماء، فالسّخيفُ للسخيف، والخفيفُ للخفيف، والجزلُ للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال "[28].

ويلاحظ الدكتور إحسان عبّاس(1920 – 2003م) أنّ هناك أسباباً كانت تدفع الجاحظ إلى العناية بشأن اللفظ، منها أنّ إعجاز القرآن " لا يُفسّر إلا عن طريق النظم، ومن آمن بأنّ النظم حقيق برفع البيان إلى مستوى الإعجاز لم يعد قادرا على أن يتبنّى نظرية تقديم المعنى على اللفظ، ومنها أنّ عصر الجاحظ كان يشهد بوادرَ حملةً عنيفةً يقوم بها النقّادُ لتبيان السرقة في المعاني بين الشعراء، ولا يُستبعد أن يكون الجاحظُ قد حاول الردّ على هذا التيار مرتين: مرّة بألّا يُشغل نفسه بموضوع السرقات كما فعل معاصروه، ومرّة بأن يُقرّر بأنّ الأفضلية للشكل؛ لأنّ المعاني قدرٌ مُشتركٌ بين الناس جميعا، وسببٌ ثالثٌ قائمٌ في طبيعة الجاحظ نفسه، فقد كان رجلاً خصبَ القريحة لا يُعْييه الموضوع، ولا يثقلُ عليه المحتوى أياً كان لونُهُ، ولذا فإنّه يُحسّ أنّ المعنى موجودٌ في كلّ مكان، وما على الأديب إلّا أن يتناوله ويصوغه صياغة مفردة "[29].

قد لا نوافق الدكتور إحسان عباس في ربطه النظم بتقديم الجاحظ للّفظ على المعنى؛ فهذا يخالفُ المفهوم الخاص للنظم، وهو توخّي ربط الألفاظ إلى معانيها، ربطاً يخلق مزية التفوّق، ويفصح عن قدرة المبدع.

والمتأمّلُ في نصوص أخرى للجاحظ يتبيّن له تفسير المقولة السابقة، فهو يدعو إلى الفكرة الجيّدة التي تستسيغها الأذهانُ، وتجتلبُ إليها النفوس فتؤثر فيها، وهذا لا يتحقّق إلّا بالتماس اللّفظ الكريم للمعنى المراد إبلاغه. يقول: " ومن أراد معنىً كريماً فلْيلْتمِسْ له لفظاً كريماً، فإنّ حقّ المعنى الشريف اللّفظ الشّريف"[30]، وكذا قوله: " فإذا كان المعنى شريفاً واللّفظُ بليغاً، وكان صحيح الطّبع بعيداً من الاستكراه، ومُنزّهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلّف، صنعَ في القلوب صنيعَ الغيث في التربة الكريمة. ومتى فصلت الكلمةُ على هذه الشريطة، ونفذت من قائلها على هذه الصفة، أصحبَها اللهُ من التوفيق ومنحَها من التأييد، مالا يمتنع معه من تعظيمها صدورُ الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها معه عقولُ الجهَلة "[31].

هي دعوةٌ صريحةٌ إلى مراعاة نفسية المستمع/القارئ؛ فالجاحظُ يريده مستمعاً مُؤهّلاً للفهم والتفسير، ومتذوّقاً للأدب، حيث يُشبّهه بالتربة الطيبة التي يصيبها المطرُ فيجدي نفعاً، كما يريد الجاحظُ أن يكون العملُ الأدبيُّ طبعاً وسليقة وفطرةً وموهبةً، لا تصنّع فيه ولا تكلّف.

وبهذا التحليل الدقيق لقضية اللفظ والمعنى واستقراء أبعادها تبرزُ نظريةٌ متكاملةٌ هي نظرية التلقّي بأطرافها الثلاثة (المرسل– الرسالة– المتلقي).

ما نستنتجه هو أنّ الجاحظ لا يفاضل بين المعاني والألفاظ، وإنما هو يُفضّلُ التعبير عن المعاني بالألفاظ الجميلة المختارة أحسن من التعبير عن المعاني بألفاظ مجرّدة لا تلائمُ المعنى الجميل. وبهذا يكون الجاحظ قد حُمّل وزر قضية تقديم اللّفظ على المعنى وهو منها براء[32].

ثالثاً: علاقة اللفظ والمعنى بفكرة " المقام والمقال":

يستقرّ الجاحظُ على فكرة " المقام والمقال" ليرتقي بنظريته في تلاحم الألفاظ بالمعاني لصناعة الكلام؛ إذ إنّ " لكلِّ مَقامٍ مقالٍ، ولكلّ صناعةٍ شَكل"[33] ؛ لأنّ ألفاظ المتكلّمين ينبغي أن توظّف في مقامها. يقول الجاحظ: " وأرى أن ألفظَ بألفاظ المتكلّمين ما دمتُ خائضا في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام، فإنّ ذلك أَفْهمُ لهم عنّي وأخفّ لمؤونتهم عليّ، لكلّ صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بصناعتهم إلّا بعد أن كانت مُشاكلاً بينها وبين تلك الصناعة، وقبيحٌ بالمتكلّم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلّمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة أو في مخاطبة العوام والتجّار أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته، أو في حديثه إذا تحدّث أو خبره إذا أخبر، وكذلك فإنّه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل، ولكلّ مقام مقال، ولكلّ صناعة شكل"[34].

ويربط الجاحظُ ألفاظ المتكلّمين باختلاف بيئاتهم، إذ " إنّ المفردات اللّغوية متفاوتة بتفاوت بيئات المتكلمين"[35] ، فباختلاف أحوال المتكلمين وبيئاتهم تختلف الألفاظ من الحاضرة إلى البادية. كما أنّ الألفاظ تختلف باختلاف مستخدميها وأساليبهم، فلكل مقامٍ مقال[35] مثلما لكلّ بيئة مفرداتها الخاصة بها.

كما تناول الجاحظُ اشتمال ظروف المخاطبين على كلّ ما يتّصل بحياتهم الاجتماعية والثقافية، حيث أشار إلى سياق الحال أو ما يسميه البلاغيون بـ(مقتضى الحال)، وقد أشار إلى ذلك من خلال العناصر الآتية:

أ- العنصر الأول: مراعاة المتكلّم كعنصر هام من سياق المقام. يقول الجاحظ: " لكلِّ قوم ألفاظٌ حظيتْ عِنْدَهم، وكذلك كلُّ بليغٍ في الأرض وصاحِب كلامٍ منثور، وكلُّ شاعِرٍ [في الأرض] وصاحِبِ كلامٍ موزون، فلا بدّ من أن يكون قد لَهج وألف ألفاظاً بأعيانها، ليديرها في كلامه وإن كان واسع العلم غزير المعاني كثير اللَّفظ"[36].

فكلام البدو وألفاظ البادية لا يفهمها إلّا أصحابُها، مثلما لا يفهم كلام الحاضرة إلّا من سكنها " فإنّ الوحشيّ من الكلام يَفهمهُ الوحشيُّ من الناس، كما يفَهمُ السُّوقيُّ رِطَانَة السُّوقي، وكلامُ النّاس في طبقاتٍ كما أنّ الناسَ أنفُسهم في طبقات "[37] .

ومثلما اختلفت الألفاظُ باختلاف البيئات والمتحدّثين وأساليبهم، تختلف المعاني أيضاً؛ فسخيف اللّفظ مُشاكلٌ لسخيف المعاني، وشريفُها مُشاكلٌ لشريف المعاني[38] .

ب-العنصر الثاني: مراعاة العلاقة بين الموقف/الموضوع واللغة المستعملة، يقول: " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاماً، ولكلّ حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيبُ متكلّما تجنّب ألفاظ المتكلّمين"[39].

ت-العنصر الثالث: استحضار كلّ العناصر المحيطة بالمعنى، حيث تزيد في إيضاح العلاقة بين اللغة والمقام الذي تستعمل فيه. فالمعنى عند الجاحظ " لا يشرف أن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقال من مقام، وكذلك اللفظُ العامي والخاصي فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك إلا أن تفهم العامةُ معاني الخاصّة، وتكسوها الألفاظ الواسعة التي لا تلطف على الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغُ التام "[40].

يشيرُ الجاحظُ إلى مجموعة من عناصر سياق الحال، والتي لا يمكن الاستغناء عنها في فهم المعنى وتوجيهه، وتتمثل هذه العناصر في(المتكلم والسامع) وأثرهما في فهم المعنى، ومراعاة الأحداث المصاحبة للكلام من أجل توجيهه.

فالكلام على مقتضى الحال من ركائز البحث البلاغي على مرّ العصور، بل عدّه البلاغيون الملحظ الأهم في تعريفاتهم المختلفة للبلاغة . يقول الدكتور نهاد الموسى(1942 -) : " إنّ أبرز الملامح في النظم البلاغي أنّه قام على اشتراط موافقة الكلام لمقتضى الحال، أو استشعار المقولة السائرة (لكلّ مقام مقال)، ورصَدَ على وجه التفصيل ما يكون من تأثير السياق؛ سياق الحال خاصة، وهي حال المتكلّم، والمخاطَب، وسائر ما يأتلف منه (المقام) . ورصَدَ ما يكون من تأثير ذلك في تشكيل الكلام وتأليفه على هيئات في القول تتنوّع وفقاً لتنوّع المقامات "[41] .

خاتمة:

لا يخفى على الدارسين والباحثينَ أنّ الجاحظ مُؤسسٌ مقتدرٌ لكثير من النظريات اللغوية والبلاغية، ولعلّ أهمها قضية اللفظ والمعنى وأثرها في توجيه الخطاب الأدبي ونقده، كما أنّ هذا الموضوع يُشكّل حجر الزاوية في عملية البيان عموماً .

ومن خلال ما تقدّم تتّضحُ أبعاد العلاقة بين اللفظ والمعنى، وقد تجلّى فيها أنّ للجاحظ جهوداً تأصيلية وتأسيسية في البلاغة والبيان، ومنها نظريته في اللفظ والمعنى، حيث استطاع أن يؤسّس لنظرية متكاملة في النقد والبلاغة العربية، كما كان لموقفه من قضية اللفظ والمعنى تأثيرٌ على النقاد والباحثين قديما وحديثا.

قمنا بتوجيه نصوص الجاحظ الوجهة التي تستحقها علاقة اللفظ بالمعنى، وحاولنا ردّ الأحكام النقدية الجاهزة والتي توهّم أصحابُها أنّ الجاحظ من أنصار اللّفظ على المعنى. والصواب أنه نصيرٌ للصياغة كاملةً لفظاً ومعنى، وهو الملهمُ لنظرية النظم.

هوامش:

1) اختلف الرواةُ في تاريخ مولده، فترجّح التاريخ ما بين (150 و159 و160، و163، و165هـ)، ويُنسبُ إلى الجاحظ أنه قال: " أنا أسنُّ من أبي نواس بسنة، وُلدتُ في أوّل خمسين ومائة ووُلد في آخرها ". وقد توفي أبو نواس سنة 198هـ. ينظر:ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مراجعة: وزارة المعارف، مطبوعات دار المأمون، القاهرة(د.ط.ت)، ج16، ص 74.

2) حمّادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوّره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية، تونس، ، ص 433.

3) الجابري محمد عابد، بنية العقل العربي(دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1991م، ص 64.

4) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م، 1138/3.

5) العشماوي محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، نشر مكتبة النهضة المصرية، ط3، 1978م، ص 212.

6) البغدادي عبد القادر بن طاهر، الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعارف، مصر(د.ط.ت)، ص 132.

7) يبدو أن هذا الكتاب اختصّ بالإعجاز القرآني . وهو مفقود ولم يُعثر عليه، وقد ذكر الأستاذ محمد زغلول سلام عنه ((كتابُ نظم القرآن يبحث في تفصيل أسلوب القرآن وعجيب نظمه ، ويقف عند آياته مفصلاً مبيناً وجوب الإعجاز وأسرار الروعة في التعبير بالقياس إلى كلام العرب)). ينظر: أثر القرآن في تطور النقد العربي حتى القرن الرابع الهجري، ص 77 – 78 .

أمّا الجاحظُ فقد ذكر هدفه من تأليفه هذا الكتاب قائلاً : ((لي كتابٌ جمعت فيه آياً من القرآن ، لتعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف ، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة والاستعارات، فإذا لك في باب الإيجاز وترك الفضول))، ينظر: الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ط2، 1943م، 3/ 86 .

8) الحيوان، 42/4.

9) طارق النعمان، اللفظ والمعنى بين الأيديولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، دار سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1994م، ص 07.

10) الجابري محمد عابد، بنية العقل العربي(مر.س)، ص 41.

11) الجاحظ، الحيوان، 131/3، 132.

12) الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة، القاهرة، مصر، ط7، 1998م، 76/1.

13) الحيوان، 75/1.

14) البيان والتبيين، 8/2.

15) المصدر نفسه، 161/1.

16) الحيوان، 311/3.

17) الجاحظ، الحيوان، 312/3. وقد وردت الأبيات في ديوان عنترة بن شدّاد برواية تختلف: جاءت (حديقة) بدلا عن (قرارة)، و(يسنّ) بدلاً عن (يحكّ). ينظر: الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنترة، قدم له ووضع هوامشه:مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص 157-159.

18) المصدر نفسه، 93/1 .

19) المصدر نفسه 1/ 145 .

20) ينظر :طبانة بدوي، دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى القرن الثالث، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط4، 1975.ص 178 .

21) محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، قدم له خلف الله أحمد ، دار المعارف بمصر ، ط2، 1961م ،ص 77 .

22) ينظر : الصفار ابتسام، وناصر حلاوي، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، العراق، ط2، 1999م. ص 107 .

23) ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب(مر.س)، ص 272.

24) ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب(مر.س)، ص 274، 275.

25) ينظر: المرجع نفسه، ص 275.

26) هلال محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، 1997م ، ص 253.

27) ينظر: المرجع نفسه، ص 254.

28) الحيوان، 423/1.

29) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب(نقد الشعر) من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الثقافة، القاهرة، مصر، ط4، 1992م، ص 99.

30) البيان والتبيين ، 86/1.

31) البيان والتبيين، 83/1.

32) ينظر: وليد قصّاب، قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم(ظهورها وتطورها)، المكتبة الحديثة، العين، الإمارات، ط2، 1985م ص 52 وما بعدها.

33) الحيوان، 366/3 .

34) الحيوان، 369/3.

35) الحيوان 5/ 542 .

36) ينظر: محاضرات في تاريخ النقد عند العرب 114 .

37) الحيوان 3/ 366 .

38) البيان والتبيين 144/1 .

39) ينظر:المصدر نفسه،1/ 144 .

40) البيان والتبيين، 138/1، 139.

41) المصدر نفسه، 136/1.

42) نهاد الموسى ، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1980 ،ص 96.